صورة الأنا والآخر في المخيال الشعبي الأوراسي

د. أحمد جاب الله
جامعة الحاج لخضر – باتنة / الجزائر

شكل الاستعمار الفرنسي تحولا كبيرا في حياة الجزائريين، فوقفوا جميعا في وجهه، وهبوا لمقاومته منذ أن وطئت قدمه أرضهم إلى غاية خروجه منهزما في الخامس من جويلية **1965**، ومن ثم فقد رسمت الثورة التحريرية مسارا حاسما في تفكير ونفسية الشعب الجزائري بكل طبقاته، وكل فيئاته لا تزال آثاره بادية إلى يومنا هذا.

كانت مقاومة الشعب الجزائري واضحة المعالم على كافة المستويات هدفها الوحيد والأوحد هو تحرير البلاد والعباد من ذل المستعمر، والقهر الدخيل الغاصب. في خضم هذه المقاومة والنضال لأجل نيل الاستقلال، كان الشعب الجزائري يعيش ويلات قاسية كان لها الأثر البارز على المخيال الشعبي أثناء تصوير بلاء المجاهدين أبطال ثورة نوفمبر **1954** وتخليد انتصاراتهم المتلاحقة، وفي المقابل أيضا شكلت تلك الصورة استهزاء بالآخر (الاستعمار) وكل رموزه من الجنرالات والرؤساء والقواد والأتباع.

وقد وردت هذه الصورة (الأنا والآخر) إلى المخيال الشعبي الأوراسي من المعاش النفسي – الذي هو مجمل العواطف والمشاعر– الذي يحس به الفرد في أعماقه ويعايشه مع نفسه. هذه المعايشة التي قد تكون إيجابية أو سلبية والتي تنعكس على توجهاته. كما نجد أن هذا المعاش النفسي يتكون من عدد كبير من الحالات كالقلق، وإحباط الإرادة، والخوف... إلى جانب التحدي والصمود، وقد ركزنا على منطقة الأوراس لما تكتسبه هذه المنطقة من خصوصية التي تعرضت

لأبشع أنواع القهر والتعذيب من طرف الاستعمار، كونها منطلق الثورة ومسعارها .فعانت هذه المنطقة من ويلات الاستعمار ما يعجز عن تصويره البيان، فوجدت تلك المعاناة طريقها إلى الأدب الشعبي على بساطته الذي انبثق من رؤية واحدة صادرة عن الآلام والآمال نفسهما.

قلق الأنا وعلاقته بتعسف الآخر:

لقد رسخ في المخيال الشعبي الأوراسي أن الآخر (المستعمر) هو المصدر الأساس للقلق الذي يملء حياته، والقلق هو "حالة من التوتر الشامل الذي ينشأ خلال صراعات الدوافع ومحاولات الفرد وراء التكيف"[1]، ويعرفه "ماي**MAY**" على أنه: "توجه يصحبه تهديد لبعض القيم التي يتمسك بها الفرد، والذي يعتقد بأنها أساسية في وجوده كشخص"[2]، يعرفه كذلك **D.Houzel** وP.Mazet على أنه: "المعاش الذي يسيطر عليه اليأس، ويتضمن فكرة تهديد، وبشعر الشخص باللاأمن وهو لا يدرك بوضوح مصدر هذا التهديد"[3]، أما لابلاش وبونتاليس فيعرفان القلق على أنه "تلك الاستجابة التي يبديها ذلك الشخص في كل مرة يجد نفسه فيها في وضعية صدمية أي خاضعا لفيض من الإثارات ذات المنشأ الخارجي أو الداخلي والتي يعجز عن السيطرة عليها"[4].

بالنظر إلى ديوان الشعر الشعبي للثورة التحريرية يمكننا إيجاد مثل هذه المواصفات لحالة القلق الذي كان يعيشها الشعب الجزائري أثناء الثورة المباركة، ولعل حالة القلق هذه كانت نتيجة اغتصاب المستعمر لأرض الجزائر وكرامتها وهذا ما أثر على الشعب الجزائري وجعله لا يهضم هذا السلوك العدواني الذي ولد لديه الشعور باللأمن في حياته اليومية وفي استغلال ثروات بلاده المتعددة ونجد هذه الصورة المؤسفة واضحة من خلال الأوضاع السيئة وانتشار الأمراض وسط الشعب، فأصبح يمد يديه لأجل الصدقات من خلال المؤونات التي لا تكفي للحاجة ونجد في هذا الصدد ومن خلال ديوان الشعر الشعبي هذه الأبيات:

جاب محنة للمساكين تعول يعطو ربع امدودة فرينة للعيال
والكروسة من اسبيطار تنقل لا يبرى من طبهم واحد محال[5]

نجد الاستعمار الفرنسي قد أثر كثيرا في المخيال الشعبي من خلال سياسة القهر والتجويع التي كان يمارسها على أفراد الشعب الجزائري حيث أصبح يتحكم في ثروات البلاد المتعددة ومؤسساته المختلفة مما أخل بتوازن هذا المجتمع والأسرة الجزائرية، بالخصوص الجانب السوسيو- اقتصادي. الأمر الذي أفرز انتشار عدد من الأمراض سواء النفسية أو العضوية نتيجة هذا الوضع المزري، هذه الأمراض التي قضت على الكثير من الأبرياء وجعلت البقية يعيشون حياة القلق والبؤس والاشمئزاز، ومما زاد من تعقيد الأوضاع العامة لمنطقة الأوراس انتشار البطالة في أوساط سكانها وقد عبرت الأبيات التالية عن ذلك:

ربي ألطف بهذا الحال هذا الغلى علينا طال
الغـــاني فنـــالوا المال والقليل كيته كيـــا[6]

كان أفراد المجتمع الأوراسي، دائما يعيشون في حالة قلق وتوتر دائمين. فهنا نلاحظ غلاء المعيشة وعدم كفاية المؤونة الموجودة، فالغني فنا ماله وانقضى، والفقير اكتوى بكيات لا تنسى جراء معاناة الفاقة والاحتياج، إلى جانب الفقر الذي كان سبب القلق كان التشرد سببا آخر لهذا القلق، إلى جانب حالات الخوف من سياسة هذا الاستعمار الذي فرق المجتمع وشرد الأسر وقطع الاتصالات بين أفراد الشعب وفي هذا المجال نجد هذه الأبيات:

كجاتنا لَمْحالْ أقويه عسكر ومسعاه القوميه
جملوا رجال في كل شية خبرونا بالرحيل مع العشرية
من (سيدي علي)[7] **حـــــوَّس ويـــن تـــــــبات**
رحنا انشاوروه على المخلية بالدمـــــار والميزيرية
قالـــــــوا هذا اورد جاء من عند الجينرال [8]

فهذه الأبيات تعبير لممارسات هذا المستعمر اتجاه هذا المجتمع وكيف أثر هذا عليه؟ وكيف كان يعيش أيامه في ظل هذه الممارسات؟

2 – إحباط الأنا وعلاقته بالآخر:

تسلل الشعور بالإحباط إلى نفسية الأوراسي بسبب الضغط الاستعماري على منطقته كونها حاضنة الثورة التحريرية، فكان سعي الاستعمار إلى إخضاع الأوراس، وإخماد تلك الثورة في مهدها قبل استشرائها في ربوع الوطن، ونتيجة لهذا الضغط خصوصا أثناء اشتداد الثورة، كانت فرنسا هي الأخرى تعاني من ضغط مهول تحت ضربات المجاهدين، ومن استنزاف اقتصادي مهول جعلها تبادر إلى رفع راية الاستسلام، وتعلن انهزامها وإحباطها علنا. ويعرف الإحباط على أنه: "الظرف الذي يمنع فيه على الشخص اشباع مطلب نزوي أو هو يحرم نفسه من هذا الإشباع."[9] يعرفه عبد الحميد محمد الشاذلي على أنه: «حالة من التأزم النفسي تنشأ عن مواجهة الفرد لعائق يحول دون إشباع دافع أو حاجة ملحة أو تحقيق هدف معين والإحباط يحدث للجماعة كما يحدث للفرد. "[10]

ويحدث الإحباط أحيانا عند عدم الوصول إلى التحقيق أو الإشباع لعدد من الدوافع البيولوجية والنفسية والاجتماعية.....إلخ. ومن هنا تتأكد العلاقة بين الإحباط والدوافع، فالفرد في الإحباط يدرك العائق الذي يقف في طريق إشباع الحاجة أو الدافع، وبقدر ما كان الدافع قويا ومتواجدا بقدر ما كان الإحباط شديدا وقويا. فالإحباط الشديد قد يؤدي إلى تقوية الدافع أو إلى إضعافه.

وبالنسبة للثورة التحريرية فإن المستعمر اعتمد بالدرجة الأولى على الحيلة والمخادعة كوسيلة من وسائله القذرة وذلك لأجل كسر سيرورة هذه الثورة والمقاومة في أسرع وقت ممكن. وبأي ثمن فخلقت أكذوبة منح الاستقلال للشعب الجزائري بمجرد الانتصار على الجيش الألماني من خلال تجنيد الجزائريين ضد الألمان في 1945. حسرة وإحباطا واستياء كبيرين في أوساط الجزائريين والتي

كانت من بين أهم نتائجها مجازر 08 ماي 1945، والتي راح ضحيتها الآلاف من الجزائريين الأبرياء. وزادت همجية هذا الاستعمار وبطشه من خلال ردوده العدوانية والقوية لفرحة الشعب الجزائري بالانتصار على الجيش الألماني لأنه كان يعتقد أن كلام الفرنسيين بمنحه الحرية بمجرد هذا الانتصار صحيح. كل هذا الطرح جعل الشعب الجزائري يتحصر ويعيش حالة الإحباط. وفي هذا الصدد خلد الشعر الشعبي في منطقة الأوراس ذلك بهذه الأبيات:

جـــانـــا مرســـول القايـــــــد ببرية قال جات من عنـــد الفسيان
كي اقرا ما ابقات الأمة تتوحد تتلطف وتقـــــول استر يا رحمان
قالوا جات اليوم قوانين جـــدد حكـــــم شرع جديد ماراته لعيان
لي احب يعيش لفرانسا يسجد واللي يقول أعلاش ينفوه لكيان[11]

فهذه الأبيات الشعرية وغيرها تعد دلالة واضحة على فضاعة الاستعمار الفرنسي وقوة قمعه لانتفاضة الشعب الجزائري وكذا لحالة الإحباط التي حلت بهذا الشعب والتي كانت كدافع قوي ايجابي لعزمه على مقاومة هذا المستعمر حتى النصر.

القدرة على المواجهة / التخمين والتنبؤ / الإرادة والشجاعة :

لقد كانت الثورة التحريرية رغم كل الوسائل التي استعملها الاستعمار الفرنسي لكسرها وتشتيتها بمثابة الإطار العام الذي انطوى تحته كل أفراد الشعب لتحقيق هدف الاستقلال والحرية وفي هذا الإطار كانت للمجتمع الأوراسي قدرة متزايدة للمواجهة رغم الوسائل القليلة، وكل الضغوطات اليومية التي كان يمارسها المستعمر عليه، وفي هذا الصدد نجد هذه الأبيات:

اخـــرج علـــى حـــراش والبارود مـــن كـــــل اثنية إغـــرد
سطيف راح طوبة طوبة يا من ادري في سبعة وإلا في ربعة
سبـــــــع أسنين آمين دخـــلوهـــــــا اذراري وبنـــات[12]

كما كانت قدرة هذا الشعب على التخمين والتنبؤ بناء على المعطيات الحالية التي استطاع أن يوظفها أحسن توظيف. وهذا ما أدى إلى زيادة ضمان استمرارية الثورة لنيل الاستقلال. وفي هذا المجال نجد قول الشاعر:

ايروح زمان ويجي ازمان سبع سنين غمرات والحرية

إن شعور الأنا بالظلم والقهر المسلط عليه من الآخر خلال ما يفوق القرن من الزمن جعله يتسم بالتمرد على الظالم، ويميل إلى القوة وحمل السلاح ضده، بعدما فشل أصحاب الحلول الدبلوماسية، وبقيت آثار ذلك في اللاشعور الجمعي لسكان الأوراس تظهر في سلوكاتهم إلى يوم الناس هذا كما تتجلى في قصصهم، وأغانيهم، وفلكلورهم..

لقد اتسم الفن الشاوي ولا سيما الأغنية بالاتجاه الديني، وبالمسحة الحزينة، وبالأداء الجماعي، مستعملا الدف أو ما يعرف بالبندير عندهم... للتعبير عن إحساسهم بالظلم والقهر المسلط عليهم من الآخر.

فقد اتسمت مضامين الأغنية الأوراسية، بالتعدد والتنوع حيث ارتبطت بالواقع الاجتماعي، ورصدت أفراح وأحزان الشعب، وطقوسه واعتقاداته، وأهم ما ميز مساره الحضاري، فأفرزت بذلك أغاني ذات مضامين اجتماعية، وأغاني ذات مضامين اعتقادية أودينية، وأغاني ذات مضامين ثورية، والتي لا تخلو منها الأغنية الشعبية بالأوراس، إلا أن الملاحظ أن الأغنية الثورية فازت بحصة الأسد من هذا المورث الغنائي الضخم، حيث مازال الشعب يرددها في مناسباته المختلفة ــ إلى يومنا هذاــ وقد يفسر هذا الأمر بما يلي:

أن الأوراس كانت قلعة من قلاع الثورة، وقبلها مركزا من مراكز المقاومة الشعبية –على مر العصور– فما تلبث أن تلفظ غزاة الأرض والوطن.

أنها من أكثر المناطق تضررا جراء الاستعمار الفرنسي، خاصة على مستوى الخسائر البشرية، إذ لا يكاد يخلو بيت من اسم شهيد أو أكثر.

معاناة سكان الأوراس معاناة نفسية حادة، ترجمت كلمة ولحنا.

أن الأوراس شهد أهم حدث في تاريخ الجزائر (الثورة التحريرية)

ونظرا للانكسارات المتتابعة للأحلام والأماني والأرزاق وعلاقات العشق وعلاقات الإنسان بالإنسان، صار الفرد الأوراسي يحمل انكسار القلب كما يحمل أتعاب يومه وهمومه وأعباءه، فأصبحت كل الأفواه فما واحدا، ينطق في التعبير عن همومه انطلاقة واحدة بصورة تلقائية وعفوية متناهية تحمل له اطمئنانا مطلقا وسكينة روحانية وفكرا وضاء فلا تمتلك كل النفوس حيال هذا التمزق المدمر إلا أن تستصرخ متفنية أو تغني مستصرخة[13] فأوحت لها الآلام والأشجان حسا فنيا سحريا يتدفق حلاوة وطلاوة، بأغاني شعبية ثورية ذات نغمة حزينة أحيانا، وتفاؤلية في أحايين أخرى، فكسرت كل الطابوهات التي أقرها المستعمر الفرنسي، وتعالت أصوات النساء والرجال والجنود والأطفال مرددين هذه الأغاني، بعثا للأمل وحشدا للهمم، وتحريضا على الجهاد، وعزفا على أوتار العاطفة بذكر حال الثكالى واليتامى والجنود للتحفيز على المضي قدما في مواجهة ظلم ووحشية الاستعمار الفرنسي.

ومن بين الأغاني الثورية المنتقاة في هذا المقام، أغنية أدّت دور التحريض على الجهاد عن طريق هذا الاعتراف المسجل من أفواه الشباب المناضل، دون اللجوء إلى الأسلوب المباشر للجهاد، بل تترك المجال مفتوحا أمام الشباب للاختيار:

يَا خَنْشْلَة[14] يَالْقَبْلِيَة وتْرابكْ بالنّـــــوار

أحْنا دْراري شَاوِية[15] واطلَعْنا للجبال صعْار

هذا الشباب الأوراسي (الشاوي) افتخر بأصله الأمازيغي، واختار الالتحاق بالجبال، رغم صغر سنه غير مبال، متفائلا بهذه الخطوة التي أقدم على اتخاذها.

ونحن نقرأ هذه المقاطع الغنائية، نشعر بقوة روحية لا مثيل لها وإصرار عجيب للأنا المقاوم للآخر الغازي دون هوادة، وبينما تستهل الأغنية السابقة باسم مدينة، تبدأ الأغنية الموالية باسم جبل من جبال الأوراس، وهو الجبل الأزرق الشامخ، الذي اتخذه المجاهدون ملجأ ومخبأ، لا يسمعون فوقه غير دوي المدافع، وصوت طلقات الرصاص التي لا تتوقف، ولكن كل هذا يهون من أجل الوطن والحرية:

يا جْبَلْ لزْرقْ العَالِيَـــا سكنوهْ ادْرَارِيَـــا
الحَبْ والرْصاص إِشالي أعْلى جَالْ الوطنية

والملاحظ أن الأغنية الثورية في كل مرة توظف لفظة (اذراري) بمعنى "الشباب" تحفيزا وتحريضا لهم، للالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، وغرس مبادئ الوطنية في نفوسهم، واستعطاف باقي الشعب، حتى يتبرعوا بما لديهم، ويساعدوا ولومن بعيد، فالكل يغني من أجل الخلاص من هذا المستعمر الغاشم، لهذا كانت تلك الأغاني الشعبية رصاصات (معنوية) هادفة تحمل الموت إلى قلوب المستعمرين الغاضبين.

وقد غدا الجبل في نظر الشاعر مكانا للأنس والألفة والراحة ومصدرا للطمأنينة، رغم ما فيه من شقاء وعذاب وكأنه يتقاسم معه الجراح والألم والمعاناة، لأنه توحد معه وأصبح جزء لا يتجزأ من حاضره وماضيه ومستقبله، فهو أنيسه الوحيد، لذلك يناديه متوخيا منه الإجابة والرد، على شاكلة ما جاء في هذه الأغنية:

يا جْبَل لزْرَقْ يا جْبَلْ لَزْرَقْ
أمْشاتْ البيعة عَشَ امْسَرْكَلْ
اذراري شُبان لَمْحَارم تشعل.

فالأغنية تنقل خبر الوشاية إلى الجبل الأزرق، الذي أصبح محاصرا من قبل قوات الاحتلال الفرنسي، وكأن المكان معني بما أصاب هؤلاء الشباب، الذي

وصفتهم الأغنية بتلك المناديل التي كانت تربط في أعلى السراويل، وهي عادة قديمة، ميزت شبان المنطقة عن سواهم، للدلالة على ريعان الشباب، وهكذا تؤكد الأغنية الثورية في كل مرة، أن المكان جزء لا يتجزأ من الكيان الثوري. ولا يفوت الأغنية الثورية بالأوراس تصوير حال المجاهدين المزرية، وقد أنهكهم التعب والمرض، من كثرة قطعهم للمسافات البعيدة راجلين (من عنابة)، وتنقل على لسانهم طلب السماح والعفو من الوالدين، لأنهم اختاروا طريق الجهاد، تلبية لنداء الواجب الوطني، الذي لا رد له مهما تعددت الأسباب.

جِينَا من عنابَـــــة واحْنا مرضى وغْلابه

اسمحيلي يايمة وبابا هذا لحرب اللي نادى

وفي الأغنية الأخرى كان المجيء من (عين أمليلة) مسافة سبعة أيام مشيا على الأقدام، إلى أن حط الجنود رحالهم بإحدى جبال المنطقة لشدة تعبهم، داعين المولى –عز وجل– أن يفرج عليهم وينفس كربهم، وفي رواية أخرى لنفس الأغنية مع اختلاف في المقطع الأخير.

جينا من عينْ أمليلة سَبْعْ أيام عْلى رجلينا

أوصلنا لجبال كَمْبينا يا ربي فرّجْ أعلينا

وفي رواية ثانية:

جينا من عين مليلة سبع أيام على رجلينا

أوصلنا لجبال كَمْبينا ربي عســاس أعلينا

في نص آخر يصور لنا على لسان أحد الجنود، كيف التقى المجاهدون بعدد هائل من الجيش الفرنسي على غفلة بمكان يسمى (بوحمامة) ورغم قلة المجاهدين اختاروا الحرب، حفاظا على كرامتهم وكرامة جيش التحرير الوطني، لأن تراجعهم وصمة عار ستلاحقهم أحياء أوموتى.

جَبّيتْ عْلى بُوحْمامة لقيتْ لعَسْكر اغْمامة
يا خَوّتِي واشْ مالهانة أولاد الشهدا ليتامى
إذا قدمنا شعلتْ النار وإذا وخّرْنا هذاك العار

وقد اكتسب الثوار صناعة ضد الرهبة من طائرات العدو وقذائفه، وضد ما يصيبهم من جراح وتقتيل، فهناك طاقة مخيفة داخل النفس الثورية تمنع صاحبها من الهلع، فيلاقي الموت مبتسما

آها سَجْعوا الشبّان حازمو المْحازمْ
نقلوا رفالضربوا طيارة
زادوا ليشـــــــار يحكموا الاستقلال
نجمة وهلال

وتنتصر الأغنية الشعبية للثوار والأنا، رغم العتاد العسكري المتطور الذي يملكه الآخر، ورغم بساطة ما يحمله هؤلاء الشباب من سلاح، إلا أنّهم تمكنوا من إسقاط دبابة بضربة واحدة، والأغنية تدعو إلى تشجيع هذا الشباب للمضي قدماــ لتختم برموز العلم الجزائري وهي النجمة والهلال، بعثا للأمل وغرسا للثقة في الأنا حتى تحقق حلمها وهو الاستقلال التام، وأن لا تستهين بقدراتها مهما كان عتاد الآخر وقوته لأنها تستند إلى الله، وهو يستند إلى قوته.

وهكذا تؤكد الأغنية الثورية، مع كل نص جديد بسالة هؤلاء الثوار وشجاعتهم وحبهم للجزائر، هذا الوطن الأم الذي لم يتردد أبناؤه قيد أنملة في التضحية بأنفسهم من أجله.

كما لعبت الأغنية الشعبية الثورية دور الإعلام والإخبار، حيث تنقل كل ما استجد بالمنطقة للثوار، وتحذرهم من أي طارئ أو حصارة، مثلما تحذر هذه الأغنية، أحد الثوار المشهورين بالمنطقة وهو "الحاج لخضر" محددة لون عمامته

الصفراء من المرور بمنطقة "المعذر" التي حوصرت من قبل قوات الاحتلال الفرنسي، داعية للشباب بالنصر.

الحاج لخضر مُول الشاش لصفر ما تعقبش اليوم على لمعذر

اصْبح امْسَرْكَلْ بالعسكـــــــــر هيـــــا لاولاد الله ينصــر

وما من شك أن ما صاغه الشاعر الشعبي في نصوصه من رصد للأحداث السياسية والاجتماعية، تعكس بحق ما عاشته المنطقة أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر، بيد أن هذا الشاعر قد يكون مجاهدا في جيش التحرير أو مناضلا أو أمًا في بيتها أو راع في قطيعه، أو فلاحا وراء محراثه أو أي مواطن جزائري آخر شريف اكتوى بنار الاستعمار وذاق مرارته ووحشيته، فلم يجد سبيلا للتخفيف عن نفسه أو الإسهام في الانتقام منه سوى الكلمة المفعمة بالمعاني واللحن الشجي، والتي يجوب بها أنحاء المنطقة وهو يرددها ليحفظها عنه الأطفال والنساء والرجال والشباب، وهكذا تخترق الكلمة جدار الصمت، وتزعزع كيان الآخر المستعمر وتوحد صفوف الأنا من أجل هدف واحد، ومصير مشترك هو تحرير الجزائر.

وعلى هذا النحو نجحت الأغنية الثورية على فعل ما لم يقو السلاح على فعله، من استجماع لقوى الشعب وتوحيد لصفوفه، وشحذ الهمم وتزويد المجاهدين بالمعلومات والأخبار.

وتتوجه الأغنية في أحايين أخرى إلى مخاطبة الشعب لتحسيسه بروح المسؤولية والوطنية، تجاه هؤلاء الثوار الذين اتخذوا من الجبال مسكنا لهم، قصد رفع الظلم عنهم، وتحقيق حياة العزة والكرامة، فتتوجه على وجه الخصوص إلى المرأة التي تعرف بعاطفتها الحساسة ومشاعرها المرهفة، وبالتالي السعي لاستقطاب اهتمامها بالقضية الوطنية وكسب تعاطفها مع هؤلاء الجنود الذين يبيتون تحت الثلوج بلا برانيس تقيهم صقيع الشتاء، وكأنها تطلب بطريقة غير مباشرة بأن ينسجن لهم البرانيس، لأنها تتدرج في اختصاصاتهن، وتأمرهن بضرورة نزع

الذهب والفضة والتبرع بها لصالح الثورة، واصفة إياهن بباردات القلوب دلالة على القساوة لتحرك فيهن روح المسؤولية والوطنية وتغلب المصلحة العامة على المنفعة الفردية وتعلمهن روح الإيثار، وفعلا كانت المرأة رمزا من رموز الثورة الجزائرية الخالدة، حيث لم تتوان يوما عن التبرع بمجوهراتها، مهما بلغت قيمتها مثلما يعرف عن المرأة الأمازيغية (الأوراسية والقبائلية) التي سلمت أغلى ما تملكه من حليها الفضي والذهبي المصنوع من قطع ذهبية والتي تسمى بالتعبير المحلي (حبات لويز):

ادْرَارِي بْـــلا يَعْلاَوَنْ الشبـــاب بـــلا برانيـــــــس
آثْنُوسَنْ اقْ–ذَ فْلاَوَنْ يـــبيـــتـــون فـــــــي الثـــلوج
اكْسَمْـــــثْ أورَعْ دْ– إيزَرْفَاوَنْ إنزعن الذهب والفضة
أهِيبَـــــــرّاذِينْ انْ ـ وُولاَوَنْ يا بـــــاردات القـــلوب

إضافة إلى العراء والبرد الذي كان يعانيه الجنود في جبال الأوراس، كانوا يعيشون حياة مزرية فهم يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء ويتضورون جوعا كلما نفذت المؤونة التي معهم، فيحتاجون التزود بالأكل والشرب والملبس فيضطرون للنزول من مخابئهم لزيارة القرى وهذا يحتاج لتأمين الطريق من قبل الحراس، ليتمكن الجنود من نقل ما يلزمهم خلسة، دون أن يشعر بهم المستعمر أو عملاؤه، وهذا ما تصفه الأغنية التي تقول:

أهْـــوتَدْ أي اعساسن إنزلوا أيها الحـــــراس
الجنود اخْسَنْ أدَّاسَـــنْ الجنود يريدون المجيء
آهَنْ غَنينْ امساكَنْإنهم يثيرون الشفقة
آربي فرَّجْ فلاسَنْ ياربي فرّج عليهم

ومن التقاليد الشائعة في الأغنية الثورية أنها تختتم بالدعاء، نظرا لطبيعة مضامينها التي تسفر عن معاناة شعب، تكبد خسائر مادية ومعنوية لا تحصى، حتى

يفوز بحياة كريمة، فهو يحتاج في كثير من الأحيان إلى شحنة نفسية تقوي عزيمته وتثبت قلبه ولا خير لبلوغ هذا الهدف من الدعاء، بوخز الجانب الروحي الديني عند الإنسان ليتمسك أكثر بأمل غد جديد.

وعلى سبيل المفاخرة تتغنى الأغنية الشعبية الثورية بأحد رموز الثورة التحريرية، فتوظف صيغة التصغير، دلالة على التدليل (قرنون) وتصف لون عينيه الزرقاوتين، وهيئته العسكرية المهيبة، وهويحمل سلاحا ذوخمسة طلقات (الخمايسي)، وتصوره الأغنية بألفين طلقة وهي صيغة مبالغة، الهدف منها المفاخرة بالثوار وقدراتهم، كما أنها تصف حزام الخراطيش بطول مترين للدلالة على امتلائه وكثرة خراطيشه ترهيبا للعدوورفعا لمعنويات الثوار، من خلال تصوير شجاعتهم وحسن تصويباتهم، فكل طلقة بطلقتين، وتسقط في كل مرة مئتي جندي فرنسي.

يا قرينْ[16] يا قَرْنُونْ يا زَرْقْ لْعِـيـنينْ

لَخْمَايْسِي فيه ألفِينْ ولَحْزَامْ فيه مِتَرْتِينْ

آ لْحَبّة حَبْتينْ وَطيَّح ميتينْ

ومثل هذا الوصف الحسي لهذه الشخصية الثورية، ينم عن إعجاب الأنا بها وولوعها بما تقوم به من عمليات ضد المستعمر، ولهذا تعتمد الأغنية الشعبية بالأوراس إلى تضمين اسم أحد الثوار المعروفين، ببسالتهم وقوتهم في كل مرة، ومن بينهم "بومدين، الحاج لخضر، فرحات عباس، قرين بلقاسم، بن بلة وغيرهم، وبهذا يسهم الثوار في غزل أجنحة المستقبل الوضاء عبر ليل حالك السواد، فيحولون ظلام القهر والاستعباد، إلى خيوط صباح مشرق ثقة منهم بقوة سلاحهم الخفية التي تتحطم بواسطتها جميع أسلحة العدو، مهما بلغت درجة قوتها وحداثتها[17].

وترصد لنا الأغنية الثورية، علاقة الثوار فيما بينهم، فتنقل رسائلهم ووصاياهم لبعضهم البعض، مثلما تصور الأغنية الآتية التي يبعث من خلالها قرين بقاسم سلامه إلى مصطفى بن بولعيد، وقد ترك له وصية الحفاظ على الدين الإسلامي، في وقت كانت فرنسا تحاول طمس كل مقومات الشعب الجزائري من دين ولغة عربية عن طريق تحطيم جميع الهيئات الثقافية، ومنع تدريس اللغة العربية، وقد قصد الاستعمار عن وعي وإصرار أن يقضي على عناصر ثقافية تؤكد أصالتنا ومكاننا من التاريخ ومن الحضارة سعيا لمحو الشخصية الجزائرية:

يا أوبـــولـــعيـــــد يا بـــــن بولعـــيـــد[18]

يَتْسَالَدْ فلاَّكْ قرِيـــنْ يسلـــم عليـــك قرِيـــن

يَقَاراكْ اتْهَلا ذِ–دين يقول لك اعتني بالدين

دْ لْحرب المجاهدين هذي حرب المجاهدين

ويتباهى المغني الشعبي بما ألحقه الثوار بقوات الاحتلال الفرنسي من خسائر لا تعد خاصة الخسائر البشرية، منتهجا أسلوب الوصف الحسي للدلالة على نوع العتاد العسكري الذي تملكه فرنسا، فيطلق عبارة "الطائرة بلا جنحين" للدلالة على "مروحيات الإجلاء" التي سارعت لحمل الجثث الهامدة، وإنقاض ما يقي من أحياء، لتؤكد الأغنية في الأخير أنها حرب المسلمين، ضد من أراد اغتصاب أرض الجزائر الطاهرة.

الطيارة بلا جنحين

تهزْ الموتى والحَيّينْ

هذي حرب المسلمين

وكم يثير البعد عن الوطن المشاعر ويهيج الذكريات، خاصة إذا كان الفرد مجبرا على أمل العودة يوما إلى البلد الذي شب فيه وسط أشخاص أعزاء عليه، وأشياء حبيبة إلى نفسه، وتصبح الحسرة أكثر إيلاما، كلما كان هذا الأمل أشد

استحالة، أوضاع إلى الأبد[19]، عندما يتعلق الأمر بموضوع النفي، حيث قامت السلطات الفرنسية أثناء تواجدها الاستعماري بالجزائر، إلى إصدار قرار بنفي عدّة شخصيات، وحتى عائلات إلى خارج الوطن، وأحيانا إلى مناطق داخل الوطن، ولم تنس الأغنية الأوراسية هذه الشريحة التي تكبدت عناء النفي والحرمان من الأهل والوطن من أجل القضية الوطنية، وتنادي جبال الأوراس الشامخة لتشكو لها ألم الفراق، وضراوة الحرب التي دامت سبع سنوات (ثورة التحرير) ومازال صوت الرصاص يلعلع مدويا، لأنه يؤمن بأن الجبل هو الوحيد الذي باستطاعته أن يجيب عن تساؤلات الإنسان ويبدد حيرته ويبعث الأمل فيه بعودة هؤلاء الرجال المنفيين الذين يثيرون شفقة كل وطني، وليس لأحد أن يفك هذه العقدة من غير المولى –عز وجل– هؤلاء الرجال الذين ناضلوا وسكنوا الجبال من أجل الوطن، نفيوا منه على أيادي المستعمر الفرنسي:

يا جْبَلْ لَوْرَاسْ العَاليـــا سبعْ سْنين والنـــار تـــــقدِيا
غاضوني[20] الرجال المنفيا ما يفك الفِكاك مـــن غير العاليا
غاضوني الرجـــــــال غاضوني الرجال وما بْيَاشْ المال
عفسوا في النضـــــــال اللـــــي حرقـــوا الجـــبال

ودامت معاناة الجزائريين ردحا من الزمن **(1830م–1962م)**، إلى أن تحقق النصر بدم الشهداء الأحرار، وبدموع اليتامى والثكالى ومعطوبي الحرب وغيرهم، ممن تضرروا من هذه الحرب القذرة التي شنتها فرنسا على الجزائر، ولا ننسى جبال الأوراس، وتراب أراضيها وأحجارها وأشجارها، وديارها التي دنست بأقدام هؤلاء الغاشمين، لكل هؤلاء غنت حناجر المغنين فرحا بالاستقلال الذي طال انتظاره:

آبن بلة يا بن بلة يابن بلة يا بن بلة
اجَمْلَدْ الجيش إجمع الجيش

ماني قلا أين هو
سبع سنين المذلة سبع سنين مذلة
أربحنا الإستقلال ربحنا الإستقلال
بدم الشهداء بدم الشهداء

وفي أغنية أخرى دعوة صريحة للشعب للخروج والتعبير عن فرحة وزهوه، بإشراق يوم جديد، تبدد فيه ظلم الاستعمار، وأضاءتشمس الحرية ربوع الجزائر، إنه يوم يغني لعيشة الحرية والسلام:

أكر فلاك أسفيل انهض يا مدني
أكر فلاك أتزهيذ إنهض لتزهو
الإستقلال إخلضد الاستقلال لاح
آب نبلة إروحـــد وبن بلة عاد

نافلة القول أن هذه الأغاني الثورية الأوراسية، وثيقة ثمينة تفند أقوال من يدعون أن الأدب الشعبي مجرد خرافات رضعناها أو ترهات صدقناها على مر العصور، وأنه خال من أي معنى أو هدف، ولعل هذه الأغاني التي صورت لنا بحق آلام وآمال الشعب الجزائري في فترة جفت فيها أقلام الكتاب ولم يبق لهم سوى سبيل واحد وهو اعتماد المشافهة، كوسيلة لزرع الوعي والتحسيس بثقل المسؤولية التي ألقيت على عاتق هذا الشعب، وهي تحرير الجزائر، فانطلقت حناجر المغنين على اختلاف أعمارهم تردد أغاني متنوعة المضامين، كلها تسعى لتكسير حاجز الخوف وتوحيد الصفوف وشحذ الهمم، واتخاذ قرار مصيري لا رجعة فيه وهو القتال حتى الموت أو الحرية والاستقلال، وكان لهم ذلك سنة 1962م.

الـــــــهـــــــوامش:

1- زينب محمود شقير: الشخصية السوية والمطربة، ط2، مكتبة النهضـــــة المصـــرية، 2002. ص: 320

2- فاروق السيد عثمان: القلق وإدارة الضغوط النفسية، ط1، دارالفكر العربي، 2001.ص: 2.

3- **-P. Mazet et D. Houzel : psychiatrie de l'enfant Et de l'adolescent, volume n°1, 2éme éd, maloine** paris, 1979, p : 248

4- جاك لابلانش وج ب بونتاليس: ترجمة مصطفى حجازي: معجم مصطلحات التحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984. ص: 412

5- العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثـــورة التحريريـــة، دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشـــعار بعـــض الأقطـــار العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986. ص 32. فرينة: الدقيق المصنوع من الفرينة أو القمح اللين، الكروسة: العربة التي تستعمل للنقل، السبيطار: المستشفى،

6- المرجع نفسه، ص 32-33. الغلى: الغلاء- فنالوا: فنا له من الفناء أي انقضى ماله. كيته: أثر الكي في الجسد

7- سيدي علي: منطقة معروفة بجبال الأوراس .

8- العربي دحو: ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية، منشورات جائزة الأوراس، باتنة، ديسمبر 2003 ص ص: 122-123

9- جاك لابلانش وج ب بونتاليس: مرجع سابق ص 96.

10- عبد الحميد محمد الشاذلي: الصحة النفسية وسيكولوجية الشخصية، المكتب العلمـــي للنشـــر والتوزيع، الاسكندرية، بدون سنة، ص: 79.

11- العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية: مرجع سابق، ص: 36

12- نفسه والصفحة نفسها.

13- همام طه، مؤشرات في الأغنية الفولكلورية العراقية، مجلة التراث الشعبي ع1، س1977، 8م، ص158.

14- خنشلة: مدينة تقع في شرق الجزائري.

15- الشاوية: تطلق هذه التسمية على سكان الأوراس نسبة إلى لهجتهم الشاوية وهي إحدى فروع اللغة الأمازيغية.

16- قرين : يقصد الشهيد القائد قرين بلقاسم.

17- صيام زكريا، معالم شخصية الجزائر، ص 192، 193.

18- بن بولعيد: يعني الشهيد القائد مصطفى بن بولعيد مخطط الثورة والرأس المدبر لها.

19- عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهـــــرة، 1977، ص 17.

20- غاضوني: أثاروا شفقتي

المراجع:

- زينب محمود شقير: الشخصية السوية والمطربة، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 2002.
- صيام زكريا، معالم شخصية الجزائر. القاهرة.
- فاروق السيد عثمان: القلق وإدارة الضغوط النفسية، ط1، دارالفكر العربي، 2001.
- عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.
- عبد الحميد محمد الشاذلي: الصحة النفسية وسيكولوجية الشخصية، المكتب العلمي للنشر والتوزيع، الاسكندرية، بدون سنة.
- العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خـــلال الثـــورة التحريريـــة، دراسة تاريخية فنية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشـــعار بعـــض الأقطـــار العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- العربي دحو: ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية، منشورات جائزة الأوراس، باتنة، ديسمبر 2003.
- همام طه، مؤشرات في الأغنية الفولكلورية العراقية، مجلة التراث الشعبي ع1، س1977.
- جاك لابلانش وج ب بونتاليس: ترجمة مصطفى حجازي: معجم مصطلحات التحليل النفســـي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.
- P. Mazet et D. Houzel : psychiatrie de l'enfant Et de l'adolescent, volume n°1, 2éme éd, maloine paris, 1979,